

١١٦

عباس خضر

الأدبُ والمواطِن



دار المعارف

اقرأ ١١٦

رئيس التحرير أنيس منصور

عباس خضر

الأدبُ والمواطِن



دار المعارف

الأدب ضرورة

نحن الآن – والإنسان فى كل آن – فى حاجة إلى التكوين الإنسانى ، أو بتعبير أقرب إلى التعبيرات الاقتصادية : فى حاجة إلى التنمية البشرية : بمعنى أن يكون المواطن ذا ضمير حى ووعى كامل بما يجب عليه للأفراد الذين يعاملهم ، والمجتمع الذى يعيش فيه ، بل إننا نرى التنمية البشرية – بمعنى تحسين الأفراد كيفاً لا كماً – هى أساس التنمية الاقتصادية وأية تنمية أخرى .

إذا كنا نتطلب فى الآلة أن تكون قوية سليمة لكى تنتج كما نريد منها فما أحرى أن يكون الإنسان كذلك : الإنسان الذى يصنع الآلة ويصلحهاويقوم على إدارتها وتشغيلها – لا بد أن يكون قويم الخلق سليم النفس إلى جانب سلامة البدن ، وإذا كان كذلك فإنه ينتج ويعمل على مستوى خلقى يرفع شأنه وينفع الناس .

ونرى أن الأدب أهم شىء فى تكوين المواطن المنشود ، سواء فى هذه الآوانة وفى كل آونة ، المواطن الذى يتكون منه المجتمع والذى برقيه وتقدمه يرقى المجتمع ويتقدم .

والأدب فى الأصل اللغوى هو الأدب (الداعى) إلى القيم

والفضائل ، ولما رئى أن ما ننتجه القرائح من روائع الكلام نثراً وشعراً يدعو إلى تلك الفضائل أطلقت عليه كلمة الأدب ، وصار الأدب هو المقتدر على أن يأتى بذلك الكلام ، والمفروض فيه أن يكون أديباً طريفاً ماجداً حراً كما قال الشاعر الجاهلى سالم بن وابصة :

إذا شئت أن تُدعى كريماً مكرماً
أديباً طريفاً عاقلاً ماجداً حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلة
فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

والأدب – فى نظرى – لا يكون أدباً حقاً إلا إذا كان قائماً على قواعد الخلق الكريم والذوق السليم ، وإن كان هناك من يجادل فى هذا ويقول : إن الفن يجب أن يكون متحرراً من كل شىء ، ونحن لا نغفل الحرية ولا ندعو إلى الوعظ والإرشاد .

فالوعظ والإرشاد حقيقة يفسدان الفن ، ولكن الأديب المتمكن من فنه يعرف كيف يبث ما يريد فى تصوير طبيعى جميل ينبع جماله من صدقه ومن إحداث الأثر الطيب فى النفوس .

الحرية والالتزام

على فرض التسليم بأن الأدب يجب ألا يلتزم بشيء من الأخلاق فإنا نراه فى هذه الحالة أقل شأناً من الأدب الملتزم الذى يثير فى النفس أكرم المشاعر بوسائله الفنية المجانبة للمباشرة والافتعال والوعظ .

أما الحرية فثمة جدل قديم متجدد فى مفهومها : كمطلب للإنسان عامة والأديب خاصة : أمطلقة هى أم مقيدة ؟

لا بد أن ندع جانباً أقوال المتطرفين الذين يطلبون الحرية المطلقة للفرد بعيداً عن اعتبارات الجماعة ومصالحها ؛ لأن هذا المطلب مستحيل التحقيق ، أو أن تحقيقه يؤدى إلى حال من الفوضى لا تستقيم معها الحياة .

لا بد – إذن – من قيود للحرية ، وأميل إلى تسميتها قواعد بدلا من كلمة « قيود » التى تقف كاللقمة فى الزور – لا بد من قواعد لتنظيم الحرية وتوجيهها .

إن القاعدة الأساسية التى يجب أن تقوم عليها الحرية هى الملاءمة بين الفرد والجماعة : بمعنى أن يطلب الفرد الحرية لكى ينفع الناس ويحارب ما يعطل قيمهم ويعوق تقدمهم . والإنسان – باعتباره كائناً حياً له

مطالب فى حياته – يتطلع إلى أن يحقق لنفسه ما يصبو إليه ، ولكن يلزم أن يكون ذلك عن طريق المشاركة ، ومن خلال الخير الذى يعم ويشمل ، وأن يدرك أنه فرد ممن يطلب لهم ويسعى من أجلهم ، وأن كل ما يقع من خير أو شر لاحق به لا محالة .

أما الحرية التى تنبع من الفرد وتنطلق بانطلاق غرائزه أو رغباته الخاصة ، سواء فى واقع حياة الإنسان أو فى تعبير الأديب – فهى حرية الحيوان الكامن فى الإنسان ، وهى الوجه الآخر لحرية الإنسان الراقى .

وإذا كان الأمر كذلك ، ولا نراه إلا كذلك ، وكان ذلك هو المفهوم السديد للحرية ، فأى شىء يكون « الالتزام » غير الحرية ذاتها . . ؟

على أننا نرى الأصل فى ذلك هو الإنسان نفسه : تخلُّقه وتكونه إنساناً سوياً سديد الاتجاه . ويتفرع عن هذا الأصل أن يكون أديباً يعبر بالصدق عن ذات نفسه الملتزمة بطبعها السوى .

وهنا نرى الحرية تأخذ إلى الالتزام الطريق الطبيعى الذى لا قسر فيه ولا إكراه على شىء ، بل على العكس . . يكون القسر والإكراه إذا منع الأديب عن التعبير الملتزم الصادق ، كأن يقال له بلسان المقال أو بلسان الحال أو بأى لسان صريحاً أو تلميحاً : ما لك ولهذا ؟ عدِّ عنه وخذ فيما يمتعك . . عبّر عن أحلامك وهواجسك ، وتمتع بلذاتك . . تغزل بالحسان وصف الخمر والكئوس وفعلها فى الرءوس ، أو عبر عن تمزقك وضياعك ولا تعن نفسك بعمل يدفع عنك التمزق والضياع . . أرسل

كلماتك فى الضباب وغلفها بالدخان ، واحذر أن يتبين أحد ما تقول ، حتى لا يعرف أنك لا تقول !

وتلك طريقة رقيقة فى سلب الحرية أو تحويل مجراها عن الكفاح ، والطريقة الأخرى هى المواجهة الصريحة بالضغط والإرهاب والسجن والتعذيب وما إلى ذلك .

الالتزام إذن لا يتعارض هو والحرية ، بل ينبع منها ، على أن يكون الأديب ملتزماً بطبعه ومشاعره وعقيدته وفكره .

الكل فى الأدب

لو نظرنا إلى مكونات المواطن الصالح لرأيناها جميعاً تخضع للأدب ، ولا يتم تمامها إلا بالأدب ، ونقصد الأدب الحى المنشود الذى هو غير متوافر تماماً كما يلزم فى هذه الظروف مع شدة الحاجة إليه .

هو الذى يجسد الحياة الفاضلة فيحبب إليها ، ويصور الرذائل فى صورها البشعة فيبعث الاشمئزاز منها ، وذلك فى صيغه الفنية التى لا تشعر المتلقى بوعظ وإرشاد ، إنما تعرض عليه التجارب الحية كأنه يزاولها ويستفيد منها دون أن يملى عليه أحد شيئاً . وهو الذى يرشد إلى ما يجب من علم ومعرفة ، وقديماً عرفه قدماؤنا بأنه الأخذ من كل فن بطرف ؛ فالأديب الحقيقى إنسان مثقف يعطى من ثقافته فى إنتاجه ، فإن لم يشتمل النتاج على عطاء ، ولم يضف إلى متلقيه شيئاً ، ولو كان هذا الشيء انطباعاً حميداً - فهو كلام فارغ لا يصح أن يسمى أدباً .

وقد يختط الأدب للعلم ، ويرتاد له آفاقاً يتجه إليها بتخيل ما يمكن أن يقع . وقد وقع ذلك بالفعل ؛ إذ وصل العلماء إلى حقائق كان الأدباء روادهم وأدلاءهم عليها ، كان ذلك فيما سمى بالقصص العلمى ، وهو

معروف ، وكما يستفيد العلم من الأدب كذلك نرى لزاماً على الأدب أن يستفيد من العلم من حيث الالتزام بالواقع والتجربة وترتيب الفكر والمنطق والاستهداف إلى خير البشرية .

الأدب والدين

كل المقومات لا يتم تمامها إلا بالأدب ، حتى الدين الذى يعلو الآن صوت الداعين إلى ضرورته لتقويم النشء وإصلاحه ، حتى هذا لابد فيه من التصوير الفنى والتعبير الأدبى . سمعت فى إحدى الندوات التليفزيونية أستاذاً فاضلاً يقول : إن المعرفة بأمور الدين لا تفيد وحدها ، بل يجب أن يهتم – إلى جانبها – بغرس السلوك الطيب فى النفوس والتعويل على العمل بروح الدين . وهذا حق لا شك فيه ، وأعتقد أن خير وسيلة إليه – وإن لم يذكرها الأستاذ الفاضل – إنما هى التعبير الأدبى الذى يحمل وجهة النظر الدينية ويصور السلوك الدينى السليم ، وغيره عما يلصق بالدين من خرافات وخزعبلات هو منها برىء .

يقول محمد هاشم عطية فى كتابه « الأدب العربى وتاريخه » بعد أن بين أثر الأدب فى صقل العقول والألسنة :

« وأخرى أنك تراه – أى الأدب – من بعض نواحيه كان أبداً وسيلة البلاغ وذريعة الرسل فيما يهبط عليهم من وحى السماء ؛ إذ يعتمدون على قوة البيان ، وفصاحة الألسنة فى تبيان ما أنزل الله إلى الناس من حكمة ، وما كلفهم من دين ، وفى قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان

قومه » تحقيق لهذه الصفة العالية من اختصاص الرسول دون قومه بكمال اللسان ، والقدرة على الحجة ، والإصابة لمواقع الإقناع ، وهو الذى جعل موسى صلوات الله عليه يقول فيما حكى عنه القرآن : « وأخى هرون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » . . . إلخ .

ونحن نرى القرآن الكريم على قمة البلاغة العربية . فهو أعظم نص أدبى يؤثر من ناحيتين : الناحية اللسانية ، والناحية الروحية . وذلك بقوة تعبيره المعجزة . ويأتى بعده فى المرتبة الأدبية كلام رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم الذى يشتمل على كثير من الروائع الأدبية والتصويرات الفنية ، وهاك من كلامه هذه الصورة الرائعة : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها ، لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

ويقول توفيق الحكيم فى كتابه « فن الأدب » ص ٧٢ : « هنالك صلة فى اعتقادى بين رجل الفن ورجل الدين : ذلك أن الدين والفن كليهما يضىء من مشكاة واحدة . . هى ذلك القبس العلوى الذى يملأ قلب الإنسان بالراحة والصفاء والإيمان . . وإن مصدر الجمال فى الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذى يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفنى . . من أجل هذا كان لابد للفن أن يكون مثل الدين قائماً على قواعد الأخلاق » .

لا إكراه فى الأدب

نحن لن نقول لكاتب : اكتب فى كذا ، ولا لشاعر : قل كذا . وإنما يصدر كل أديب عن وجدانه وفكره بمحض حريته ومن تلقاء ثقافته . وسيكتب كل ما تفيض به قريحته.، إن ديناً فدين ، وإن خلقاً فخلق . . . إلخ ، على أن يكون ملتزماً سواء السبيل إلى تكوين المواطن الصالح . ومن قبل ذلك لابد أن يكون الأديب نفسه مواطناً صالحاً ، ففاقد الشىء لا يعطيه كما يقولون . وسيتكون لنا من مجموع ذلك رصيد أدبى يمثل كل الاتجاهات ، وتتفتح فيه كل الأزهار ، ويؤتى أطيب الثمار ، على أن تكون الأزهار يانعة والثمار طيبة .

ويميز هذا من ذاك نقد أدبى سديد الاتجاه ، مبرأ من التحامل والمجاملة . على أن القارئ الحصيف نفسه قادر على تمييز الجيد من الردىء ، وهو أصدق من الناقد ، لأنه يحكم بنفسه لنفسه ، أما الناقد فيكتب لغيره ، ولن يكون صادقاً إلا بأن يكون خالصاً من الهوى ، ولن يكون نافعاً إلا إذا كان على مستوى جيد من الثقافة .

ولن يستغنى الأدب مطلقاً عن النقد ، وخاصة لأن القراء ليسوا كلهم حصفاء .

ومن استقامة النقد الأدبي ألا يكون الناقد منتمياً إلى « أيديولوجية » معينة ، ناظراً إلى العمل الأدبي بمنظار هذا الانتماء ، فما كان مطابقاً له كان هو الأدب ليس غير ؛ فهذا يخرجنا من دائرة الالتزام الحر ويدخلنا في دائرة الإلزام والإكراه . ولا إكراه في الأدب كما أنه لا إكراه في الدين .

المواطن العربى

وأحب أن أنبه - قبل أن نمضى فى هذا الحديث - على أن المقصود بكلمة «المواطن» فى هذا الكتيب المعنون بـ «الأدب والمواطن» ليس هو المواطن المصرى فحسب، بل هو الإنسان العربى فى الوطن العربى الكبير. إنى أعتقد أن الحركة الأدبية التى يعبر عنها اللسان العربى لا يمكن أن تتقوقع داخل بلد عربى دون آخر، وأقصد الحركة المثلى التى ننشدها. ونلحظ أن الحركات الجارية الآن تكاد تتقوقع أو هى متقوقعة فعلا.. فنحن فى مصر مثلا لا نعرف شيئاً يذكر عن الإنتاج الأدبى فى البلاد العربية الأخرى. ولا أظن الأدب المصرى الآن منتشراً فى الشقيقات كما كان فى الماضى القريب. وهذا كله فى رأيى دليل على أن ليس ثمة الآن حركة أمثل!

خذ مثلاً: مؤتمر الأدباء العرب، الذى هو الأمل الوحيد لإحداث الحركة المثلى، ليس فقط لأهمية القرارات أو التوصيات التى يتخذها، على أن هذه كثيراً ما تظل حبراً على ورق.. ولكن كذلك لأنه يكون مجتمعاً من أدباء العرب الآتين من مختلف الجهات، فيتم التعارف والاحتكاك بينهم، ويقف كل منهم على المسارات والتيارات الأدبية فى

البلاد الأخرى ، وكثيراً ما يحتقب العضو الجاد بعض الكتب من هنا وهناك ويجعلها جزءاً من حياته الأدبية واهتماماته الفكرية .

ذلك المؤتمر ، المفروض فيه أن يجتمع سنوياً ، ولكن تمر السنون ذوات العدد دون أن يجتمع . . وإذا اجتمع فهل هو يمثل حقيقة الأدباء فى البلاد العربية ؟ هل تتكون الوفود من الأدباء الحقيقيين ؟ هل يجد الأديب الذى هو بحق أديب أمثاله فى الشقيقات الذين يسمع عنهم وقد يكون قرأ لهم وتشوق إلى لقائهم ؟ يحدث هذا على قلة ، ولكن لا يفوتك أن تلحظ الكثرة الكاثرة التى تتكون من أناس قد تكون لهم صلة ضعيفة بالأدب أولا صلة لهم به ؛ إنما هم من موظفى وزارة الثقافة التى ألفت الوفد ، أو من المنتمين لأى من ذوى النفوذ أو الحزب الذى تتألف منه الوزارة . . !

تلك العلاقات المعدومة أو الواهية بين الأدباء العرب من أسباب ضعف الحركة الأدبية العربية العامة ، والعجيب أنها لا تسير محاذية لنمو العلاقات السياسية ، وقد كان الأمر فيما مضى على عكس ذلك !

وثمة ظاهرة أخرى ، هى أن الهيئات العربية – على مستوى الحكومات أحياناً وعلى مستوى الأفراد أحياناً أخرى – تحفل بلاعبى الكرة والممثلين والممثلات على حين تهمل العلاقات مع الأدباء ولا يحظى التبادل الأدبى باهتمام يذكر !

نسمع ونقرأ أحياناً أن هيئة كذا فى الولايات المتحدة الأمريكية أو فى

ألمانيا أو غيرها من دول أوربا دعت فلاناً وفلاناً من الأدباء المصريين للاشتراك فى ندوة أو إلقاء محاضرات عن الأدب المصرى أو العربى ، ولكنا لا نسمع ولا نرى مثل ذلك بين البلاد العربية ، مع جهل كل بلد منها بالإنتاج الأدبى فى البلد الآخر ! حقًّا إن المدرسين المصريين منتشرون فى البلاد الشقيقة ويؤدون مهام ثقافية ، ولكن هذا شيء والحركة الأدبية العامة شيء آخر .

المواطن المصرى

إن ما أشرنا إليه من ضعف الروابط والحركة الأدبية العربية العامة – إنما هو انعكاس لهذا الضعف فى داخل البلاد نفسها ، والذى نعرفه ونلمسه أن المواطن المصرى على وجه عام لا تدخل فى حسابه الاهتمامات الأدبية : فهو لا يقرأ إلا الصحف والمجلات ، وهذه أيضاً لا تهتم بالأدب كما كانت تفعل سابقاتها ، وقلما ترى فى البيت المصرى مكتبة ، وقلما تسمع فى الأحاديث الأسرية أو غيرها من المجالس شيئاً عن أدب أو ثقافة . ولا نرى فى يد أحد كتاباً يتصفحه فى مكان عام ، كما نسمع عن ذلك فى البلاد المتقدمة ، ودلالة ذلك أن الكتاب لا يدخل فى دائرة اهتمام المواطن المصرى إلا قليلاً !

وقد يكون من أسباب ذلك ارتفاع أثمان الكتب فى الوقت الحاضر ، على أن الظاهرة موجودة من قبل هذا الارتفاع ، وإنما هو زاد الطين بلة ! ومن الحق أن ثمة أسباباً لارتفاع أثمان الكتب تمشياً مع الارتفاع العام فى أسعار الأشياء المختلفة ، ولكن لماذا لا يشمل دعم الدولة الرغيف الثقافى ؟

قلبى مع دور النشر الجادة فى بلادنا : إن هى أرخصت خسرت ،

وإن هى أغلت قل بيعها وامتلأت مخازنها وشبعت فئرانها . . والنتيجة أنها خاسرة فى كلتا الحالتين !

وبلغ الأمر نهاية السوء ؛ إذ أصبح الأديب يأخذ ثقافته من الصحف والمجلات – ولا ثقافة فى الصحف والمجلات ، ما عدا القليل الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع . . وصرنا نسمع ونرى فى الإذاعة والتليفزيون برامج وندوات يقال : إنها أدبية ، وصار المبرز فيها من يحاول نظم الزجل ، وتقدمهم المذيعات على أنهم شعراء . .

القصة القصيرة والصحافة

افتقدت صحافتنا فناً أدبياً ، هو القصة القصيرة ، نشأ فى أحضان الصحافة ، سواء فى بلاده الأصلية كفرنسا وإنجلترا وروسيا ، أو فى مصر مؤلفاً ومترجماً .

فى مصر فتحنا عيوننا عليها فى جرائد « السياسة » و« كوكب الشرق » وغيرهما . وكذلك فى المجلات المختلفة ، مترجمة ومؤلفة بأقلام رواد عظام فى الترجمة والتأليف ، يدفعونها إلى «دور الحضانة» فى الصحافة . . جرائد ومجلات تزهو بها الصفحات ، ويبتسم « الوليد » للقراء ، فيقبلون عليه حامدين للصحف ما تحمل إليهم من هذا اللون الشهى المغذى .

ولم تكن الصحافة تشعر بغربة القصة القصيرة عنها ، فهى — أى الصحافة – تقوم فى أساسها على الخبر والتحقيق « الريبورتاج » والقصة خبر يؤدى بطريقة أدبية .

والصحافة تعكس اهتمام الناس وتعبر عن القضايا التى تشغلهم ، وكذلك القصة القصيرة ، أو هكذا كانت . . نشأت فى مصر أول ما نشأت وليدة للفن القصصى الغربى الحديث ، وليدة له شكلا ، ولكن المضمون كان مصرياً ، يثور على الأوضاع ، ويدعو إلى التغيير للأفضل .

كانت القصة القصيرة فى تاريخنا الحديث أول فن أدبى يتجه إلى المذهب الواقعى ، ويعبر عن الأصالة والبيئة ، ويرفع راية الكفاح من أجل الإصلاح ، بلغة أخرى غير لغة الخطب ، هى لغة الفن . ومن هنا كان له دور فى تنشئة المواطن وتوعيته وتقدمه .

ثم ترامت الحال بذلك الفن الأدبى فى بلادنا حتى صار شيئاً آخر ، يشبه الجنين الذى ينزل قبل أن يكتمل خلقه ، فما تكاد ترى له أنفاً وفماً وعينين ، ولا تعرف له يدين من رجلين .

قد يكون ذلك محاكاة أو امتداداً لأمثال له فى بلاد الغرب ، وأعتقد أن قضية - أخذ الصالح من الغرب وترك الفاسد - أصبحت مفروغاً منها منذ زمن بعيد . ولكن بعضنا يريد أن يعود إلى القديم بصفة الجديد . . مثل « موضة » الملابس والشعور والسوالف . .

لذلك - على ما أتصور - جعلت الصحافة تعرض عن نشر القصة القصيرة إلا قليلا . . وكادت تنكر بنوتها ، لا لقسوة منها ، وإنما لعقوق الابنة الضالة . . على أن هناك نوعاً من الصحافة مسكيناً . . هو المجلات الثقافية التى تكلف نفسها عبء ذلك القصص استجابة لصيحات أصحابه « الطلائع » وصوت الطلائع عال لا يسكته إلا النشر . وليكن هذا محمولا على بقية المواد ذات الوزن الفكرى وبعض القصص الجيدة لكتّاب كبار وشبان ناضجين عندهم ما يقولونه فى وضح الفن ، فليست بهم حاجة إلى الغسق . .

الواقع الأدبى

المسألة فى نظرى ليست مسألة شباب وكهول وشيوخ ، فالواقع الصريح أن ناساً من كل صنف ليسوا معنا فيما نريد من بناء الإنسان ، وبعضهم يقل عطاؤه عن مستوى ما أعطى من قبل ، والاسم يمضى به ! وفى الناحية الأخرى نرى من يرفعون الشباب شعاراً ويغالون فى الهتاف به ، ومن أمثلة هذه المغالاة – فى غير الأدب – أن سمعت مراراً المذيع فى إذاعة الشباب يرفع صوته قائلا : « وقت ساعة الشباب الرابعة والنصف ! » والساعة هى الساعة طبعاً للجميع . فليست هناك ساعة للشباب وساعة لغيرهم . وهم يستغلون عطف القيادة السياسية فى فرض الجهل والفجاجة على الحياة الأدبية . والشباب جدير بالعناية ، لا شك فى هذا ، ولكن لابد من التمهل وبلوغ النضج حتى يمكن الاقتدار على إجادة الإنتاج ، وجودة البضاعة هى التى تقدم المتقدم . وبيننا شبان تقدموا فعلا بإنتاجهم الجيد ، وأصبحوا مُثلا تحتذى .

والواقع الذى يؤيده علم النفس أن رفع الأصوات إنما هو محاولة لتغطية النقص . ويؤيد هذا أن الشباب الذين نضجوا وتقدموا أصبحوا هادئين يؤثرون أن تتكلم أعمالهم ، وهى تحسن الكلام .

قد تبدو صورة الإنتاج الأدبى قاتمة في واقعنا الحاضر . ولكن لا أرى هذا داعياً إلى اليأس ، وخاصة إذا تأملنا ورأينا أن ذلك فى الشكل الظاهر ، من حيث سوء النشر وضيق مجاله ، ولابد من بذل الجهد على ضوء البصيرة النافذة لإزالة الأسباب الظاهرة .

كثيراً ما أشترك في فحص الإنتاج الأدبى الذى يقدم إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وإلى نادى القصة فى مسابقاتٍ أو بغية النشر ، فأرى فيه مواد جيدة قل أن أرى مثلها فيما ينشر ، حتى للأعلام المعروفين ! ثم يمضى الزمن دون أن يتمكن أصحاب الإنتاج الفائز من نشره . . !

وما يطبعه المجلس الأعلى لا ينشر ، أقصد لا يقدم للبيع فى السوق . . فلا يستفيد صاحبه إلا المبلغ الذى يصرف له ، وإلا نسخاً للإهداء . . وهذه « العملية » لا تحقق المقصود من النشر .

والواقع القاتم أن مجال النشر عندنا ضيق وسيئ بالنسبة للأدباء جميعاً – مع استثناء قلة مشهورة – من شيوخ وشبان ، سواء من فى الأقاليم ومن فى القاهرة . ولا أرى اللوم يوجه كله إلى القائمين على النشر ، بل يرجع معظمه إلى الجمهور غير القارئ . . والمؤسف أننا فى هذا العصر الحديث لا نزال نفتقد الجمهور الذى يعتمد عليه الكاتب ، كما نرى ونسمع فى البلاد المتقدمة ، ولا نزال فى حاجة إلى رعاية الدولة ودعمها . . كأننا لم نغادر العصور التى كان الملوك والأمراء فيها يرعون

الشعر والأدب ويحتضنون الشعراء والكتاب !

والمؤسف كذلك أن تلك حالنا وقد انتشر التعليم حتى كاد يشمل جميع المواطنين وكان يرجى من وراء ذلك أن يكون هذا الانتشار مدعاة إلى وفرة عدد القراء الجادين الذين يطلبون الثقافة فيما يقرءون ، ويفهمون أن التعليم مدرسياً كان أو جامعياً ليس إلا وسيلة للتزود من القراءة العامة المستمرة بحيث يكون الكتاب صديقاً دائماً فى أوقات الفراغ .

الأمية الثقافية

ثمة أسباب لقلة إقبال المواطنين المتعلمين على القراءة الثقافية والأدبية خاصة، يجب الاهتمام ببحثها فى المجالين : المدرسى والعام ، فإن هذه الظاهرة تشكل ما يسمى «الأمية الثقافية» ، وهى جديرة بالمكافحة مثل أمية الذين لا «يفكون الخط» ، بل إننا نسأل : لماذا نهتم بإزالة هذه الأمية وتعليم المواطنين القراءة والكتابة ؟ أليس هذا لأجل أن ينتفعوا بمعرفة القراءة ويتثقفوا ؟ ومعنى هذا أن القضاء على الأمية الثقافية هو الهدف ، فما بالنا ندع هذه الأمية متفشية بين المتعلمين أنفسهم ؟

وإذا كان بحث تلك الأسباب من واجب المربين والمهتمين بشئون التعليم فإننى لا أطيل هنا بالخوض فى تفصيلاتها ، ولكنى أشير إلى ما يتصل منها بالقراءة الأدبية : هناك مثلا ما يسمى بالكتاب ذى الموضوع الواحد الذى يقرر للقراءة فى المدارس ، قليل جداً الصالح من تلك الكتب ، الذى يجذب الأولاد إلى قراءته ويحملهم على القراءة بنفس مفتوحة . . وأقول «قليل» من باب الاحتياط ، فقد يكون موجوداً ولم أطلع عليه . . «ومعظم» هذه الكتب ثقيل الظل ، إما لارتفاع مستواه عن مستوى الطلاب ، وإما لأن موضوعه بعيد عن اهتمام الناشئة ، وكلها أو

جلها يختار من النوع «الدعائى» الزاعق المنفر حتى مما يدعو إليه . وثمة حقيقة أدبية معروفة ، وهى أن المهم ليس الموضوع وإنما المعالجة وكيفية التناول

وقل مثل ذلك فى اختيار النصوص الأدبية المقررة ، وطريقة شرحها أو ما يسمونه «تحليلها» الذى يحفظ« صماً »للحصول على أكبر «مجموع» ولا يدرك له أى مغزى ولا يحقق المقصود ، وهو الاتصال بالحياة الأدبية !

وفى القراءة الخارجية : ماذا يقرأ الشباب غير الروايات الهابطة إن كانوا يقرءون ؟

مرحلة مهملة

هنا وقفة لابد منها لتوضيح أمر قل أن يُلتفت إليه ، ذلك هو التأليف للمرحلة المتوسطة بين الطفولة والشباب . تكاد هذه المرحلة تكون مهملة ، ما عدا قلة قليلة لا تكفي في هذا الميدان منها : محاولات لكامل كيلاني يمثلها كتابه «أساطير ألف يوم» الذي يشتمل على حكايات من «ألف ليلة وليلة» أو حكايات تشبهها ، كتبت بأسلوب يلائم مستوى ما فوق الطفولة الصاعد إلى الشباب ، ومنها سلسلة «أولادنا» التي أصدرتها دار المعارف .

الطفولة تحظى بعناية لا بأس بها ، وإن كانت دون ما يجب أن يكون كماً وكيفاً ، وهناك مؤتمرات ولجان يرجى أن يكون من ورائها ما يرجى من خدمة ثقافية للطفل .

ولكن . . . بعد أن يكبر الطفل ويحصف عقله ، فيرى هذا الذي يقرؤه دون مستواه ، ماذا يقرأ ؟ إنه في هذه المرحلة يتطلع إلى قراءة تناسبه ، تعبر عما يحيط به ويثير اهتمامه . وهذه فرصة ذهبية في تكوين الناشئ وغرس القيم وتأصيلها في نفسه ، ولكن هذه الفرصة تمر وتذهب هباء ، لأن الناشئ لا يجد شيئاً من ذلك أمامه ، قد يلجأ إلى الروايات

الهابطة ومغامرات « أرسين لوبين » وما إليها .

وحبذا الأمر لو استغلت تلك الفرصة بالاستجابة إلى ما يتطلبه الصبى من قراءة نافعة منوعة ، بين تصوير واقع الحياة الجارية وبين استلهام تاريخنا وسير أبطالنا وملاحمهم فى الأدب الشعبى وفى التاريخ العام . وتلك الميادين غنية بالمادة « الخام » التى تصلح لأن يصنع فيها أدب حى جميل يجذب الناشئين إلى القراءة . وأخص بالذكر التاريخ الدينى لما فى التأليف فيه بطريقة عصرية من تهذيب وتقويم ، على أن هذا لا يتحقق كما يجب إلا بالتصوير الأدبى الجذاب ، ويؤيد هذه الحقيقة ما كتبه الأستاذ عبد الحميد الكاتب (عبد الحميد عبد الغنى) فى أخبار اليوم » – ١٩٧٧/٢/٢٦ – وهذا من الأشياء القليلة فى صحافتنا الآن . قال وهو يتحدث عن قراءته فى صدر الشباب وقد وقع فى يده كتاب « واشنجتون إيرفنج » عن محمد وخلفائه :

« استهوتنى قراءته عندما بدأت أتعلم قراءة الكتب الإنجليزية . . ولعلى اتجهت إلى قراءة هذا الكتاب فى صدر الشباب ، لأن تاريخ هذا الأديب الأمريكى كان فيه ما يثير خيالنا ونحن نطرق أبواب المعرفة وأبواب الحياة . . فقد ترك واشنجتون إيرفنج أمريكا وأقام واستقر فى إسبانيا ، واستهوته منطقة الأندلس بما خلفه المسلمون فيها من أروع وأعظم الآثار : مسجد قرطبة ، وقصر الحمراء ؛ فكتب قصصه المشهورة عن الحمراء ، ثم أخذ يقرأ عن الجذور التى نبتت منها حضارة الإسلام ،

فدرس تاريخ العرب ونشأة الإسلام ، وبينما هو يدرس وينقب عثر فى دير من أديرة الرهبان على ترجمة إسبانية لتاريخ أبى الفداء ، فاستخلص منه كتاباً روى فيه سيرة الرسول ﷺ وسير خلفائه الراشدين ، وتاريخ الفتوح العربية حتى انتهت إلى إقليم الأندلس ، فقامت فيه دولة عربية وحضارة إسلامية زاهرة . . وظل كتاب إيرفنج مخطوطاً فى بيت أحد الأغنياء الأمريكان إلى أن وجد طريقه إلى المطبعة منذ قرن وربع قرن » .

واستطرق الأستاذ من ذلك إلى أن اهتم أدباؤنا مثل هيكل وطه حسين بالكتابة الإسلامية الأدبية ، ولم يكن ذلك واقعاً من قبل .

فى ذلك المجال : مجال التأليف للصبية بين الطفولة والشباب يمكن تكوين المواطن الصالح وهو غض ، وترشيد سلوكه فى الحياة وإبعاده عن الوافد والمستجد من نوازع الانحراف والفساد .

حتى إذا شب الناشئ عن الطوق ، وكان متصلا بمصادر الثقافة فى المؤلفات الملائمة استمر فى القراءة وطلب المؤلفات الكبيرة ، ووصل إليها بتدرج معقول ، فلا يراها غريبة عليه مستغلقاً فهمها وتذوقها ، كما هو واقع الآن .

وبذلك ينجو مما نسميه « الانحراف الأدبى » الذى نلحظه الآن فى بعض الشبان ، والذى نرى أصحابه يقذفون الأدباء الناضجين من شيوخ وشباب بالسباب والصياح ، فهو انحراف يساير ويحاذى انحرافات أخرى ، منها ما هو اجتماعى ، ومنها ما هو سياسى ، وما هو دينى . والعلة

واحدة ، وهى إهمال التكوين السديد فى النشأة الأولى بالقراءة النافعة .

تلك الظاهرة الملحوظة إلى جانبها – لحسن الحظ – تيار آخر مختلف ، يتمثل فى شبان آخرين يجدون فى حياتهم وقد استطاعوا أن يجتازوا مرحلة « الجدب التأليفى » بما يشبه المعجزات ، مثل هؤلاء كمثل نبات الصبار الذى ينبت فى الصحراء دون تعهد ولا رعاية ، وبهم تناط الآمال فى الحاضر والمستقبل . وكثيراً ما نلتقى نحن وهؤلاء على صفحات إنتاجهم المقدم للمسابقات ، فنجدهم مبرزين ، ولانملك لهم إلا جنيهات المكافآت وأطيب التمنيات ! بعضهم يظهر فى عالم النشر ، فيدعو إلى التفاؤل والأمل ، وبعضهم يبتلعه الإهمال ومايتبعه من يأس فيقعده مع القاعدين !

المسئولية فى أزمة القراءة

من المسئول عن الظاهرة المتفشية والمتمثلة فى قلة إقبال المواطنين على القراءة عامة ، وقراءة الأدب خاصة ، والأدب الجاد على وجه أخص ؟

تذكر – فى الإجابة عن هذا السؤال – عدة أشياء أشرنا إلى بعضها فيما سبق ، منها الجدب التأليفى فى مرحلة الصبا ، ومنها خلو البيت المصرى من المكتبة ، ومنها ارتفاع أثمان الكتب فى الوقت الحاضر . ومما لم نذكره التسابق الرهيب فى الحصول على «مجموع» يؤهل لدخول الكليات الجامعية مما يجعل كل هم الطالب أن يقصر جهده على الكتب المدرسية ، ويملأ حافظته بمحتواها ، ثم يصبها فى الامتحان ، ولا يبقى لغيرها من الكتب الخارجية أى جهد أو طاقة !

والذى يهمنا فى هذا الفصل ونريد تأكيده هو ما يخص الأدباء وما يتعلق بمسئوليتهم الأدبية . الواقع أن إنتاجنا الأدبى الحاضر لا يشجع على الإقبال عليه ، وهو فى الوقت نفسه لا يحقق الغرض المنشود من الأدب فى تلوين المواطن وبناء الإنسان وتصحيح سلوكه . إنه يفقد الركنين الأساسيين فى كل فن حى ، وهما المتعة الفنية ، والمرمى المنبث فى ثنايا هذه المتعة .

أما الشعر فإنه يهيم فى كل واد . . ما عدا الوادى الذى نعيش فيه كجماعة لها حقوق عليه : منه ما هو مفهوم يعيد ولايزيد . . ومنه ماهو مستغلق لا يكاد يبين . . ومعظمه يدور حول فردية الشاعر ونوازعه التى لا ترتفع إلى هموم الجماعة .

ويتصل بالشعر هذا الكلام الذى يردده المطربون والمطربات غناء ، ولاغناء (بفتح الغين) فيه . إنه – فى أحسن الحالات – تعبير فردى ينحصر فى الحب بين الرجل والمرأة ، ولايؤدى من خلال ذلك معنى إنسانياً أو اجتماعياً عامًّا كما يجب أن يفعل . قصاراه أن يكون صحيح الوزن حلو الكلمات !

وفى الإذاعة والتليفزيون يسمون ذلك اللون « الأغانى العاطفية » ولا بأس ، بل يجب أن تكون الأغنية عاطفية ، وأعتقد أن العاطفة يجب أن تكون إطاراً لما يهم الجميع من غرض اجتماعى أوإنسانى عام . .

خذ مثلا هذه الأغنية التى غنتها المغنية الأمريكية « مارتا ديفيز » بالبرنامج الأوربى من القاهرة :

« لقد أعمانى الحب
وسرت فى طرق ملتوية طيلة الوقت
فلم أستطع أن أرى بوضوح
كل ما أفعله فقد أعمانى الحب
وأخيراً انتهى كل شىء وذهب . .

هذا الرجل
وبرغم ذلك أتمنى له كل حظ
لقد كان حبيبى ولكنه خذلنى
وكنت عمياء بحبه فلم أر مخاطرى
ولم يخبرنى أحد أن حبنا سيموت
.. فى يوم من الأيام .. فقد أعمانى الحب عن كل شىء »

إنها تتحدث عن الحب ، نعم ، ولكنها ترمى من خلالها إلى مرمى ، هو « الحب الأعمى » الذى تكون نهايته التمزق والضياع !

وأقول : إن الأغنية – أية أغنية – لا بد أن تكون عاطفية ، حتى الأغانى الوطنية التى يجعلونها قيماً للأغانى العاطفية .*. حتى هذه تعبر عن عاطفة هى حب الوطن . المهم أن يكون من وراء العاطفة «شىء» .. هذا الشىء هو الذى لمسناه فعلا فى أغانينا الوطنية التى عبرت عن انتصارنا فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، لأنها كانت صادقة ونابعة من القلوب الخافقة .

والأغانى الوطنية –على وجه العموم– هى فقط التى نراها فى أغانينا ذات موضوع عام ، وإن كان بعضها مفتعلا .

وأما الفن الآخر من فنون الأدب : فن القصة ، فقد رأينا منه القصة القصيرة تكاد تنحصر عن الصحافة : أمها الرءوم التى نشأت فى أحضانها . والقصة القصيرة بدأت فى حياتنا الأدبية الحديثة على يد رواد

عظام ثاروا على التأخر الملحوظ فى البيئة ، فأدت قصصهم دورها فى الإصلاح الاجتماعى بلغتها الأدبية ، وكانت كتاباتهم داعية إلى التعبير الصادق عن البيئة والمجتمع الذى سماه الدكتور هيكل فى روايته : زينب « البيئة الاجتماعية » وكانت القصة فى ذلك الوقت ثورة على الأدب الجامد المقلد للقديم الموروث وللجديد الوافد من الغرب ، ولكن القصة القصيرة أصبحت الآن – فى كثير مما ينشر فى مجلات ثقافية أو كتب – مثل الشعر الغامض الملتوى ، لا تعرف لأى منها ولا لأى منه رأساً من رجلين ! .

ولا ننكر أن هناك قصصاً جيدة فيما ينشر لكتاب وكاتبات مجيدين ومجيدات ، ولكنها قليلة ، وهذا النوع القليل هو الذى يرجى لأداء الأغراض الجماعية ، فهو أولا واضح الأداء يستجيب للجماهير القارئة إن وجدت ، وأخيراً يحمل إلى هذه الجماهير ما يريد أن يقوله فى حياتنا الحاضرة .

وأما فن الرواية فقد ظفرنا منه فعلا فى السنوات الأخيرة بمحصول لا بأس به ، تناول بعضها الحياة السياسية والوطنية بتوفيق فنى لا بأس به . وبعض الروايات اتخذت مسارها إلى أفق العلوم الطبيعية فى خيال شائق . على أن هناك ما تؤثر العافية دون قراءته . . !

وتحظى الدراسات والنقد الأدبى بمساحات كبيرة من بعض المجلات الثقافية ، وبرغم كل ذلك لا يزال ذلك المحصول قليلا ، ولا يلبى حاجة الناس إلى ما يرون فيه أنفسهم ومشكلاتهم وما يشغلهم فى معاناتهم الحياتية ، وإلى ما ينبعث منه ضوء ينير السبيل إلى حياة أفضل .

دور الصحافة

لابد من السؤال أو التساؤل عن دور الصحافة وباقى أجهزة الإعلام ، وما يجب أن تقوم به للحركة الأدبية وتشجيع الأدب المنشود لتكوين المواطن السليم ومعالجته من العلل النفسية والآفات الاجتماعية .

الصحافة أصبحت فى عالم آخر غير عالم الأدب ، وكانت فى أيام نشأتنا تقدم لنا ما طاب منه وتهدينا إلى روائعه ، كانت الجريدة اليومية تقدم كل يوم صفحة أدبية حافلة . ومن قبل ذلك كانت جريدة « السفور » الأسبوعية مجالا فسيحاً لأقلام رواد النهضة الأدبية وأساتذتنا الذين أخذنا عنهم وتعلمنا منهم ، وأخرجت جريدة « السياسة » ملحقاً أدبياً أسبوعياً باسم « السياسة الأسبوعية » وكذلك جريدة « البلاغ » التى أصدرت ملحقها الأدبى الأسبوعى باسم « البلاغ الأسبوعى » فكان هذان الملحقان مجلتين أدبيتين من أعظم المجلات الأدبية ، ويذكرهما جيلنا كما يذكرهما التاريخ الأدبى بالإعزاز والتقدير .

وكانت كلتا الجريدتين اليوميتين تنشر المقالات الأدبية ولا تكتفى بالملحق الأدبى . من تلك المقالات «حديث الأربعاء» للدكتور طه حسين ، الذى كان ينشر كل يوم أربعاء بالسياسة اليومية لا الأسبوعية كما

ذكر الأستاذ عبد الحميد الكاتب فى المقال الذى قطفنا فقرة منه فى فصل «مرحلة مهملة» وقد نشر حديث الأربعاء فى كتاب بعد نشره على حلقات فى جريدة السياسة . ومعظم كتب نهضتنا الأدبية الحديثة نشر فى الصحف على حلقات كذلك .

وكانت السياسة اليومية تنشر القصص القصيرة المؤلفة ، أما السياسة الأسبوعية فكانت تنشر القصص المترجمة جرياً على السياسة المرسومة لها من حيث العناية أكثر بالثقافة الغربية ، فلما جاءت «الرسالة» كانت على العكس ، غايتها الثقافة العربية أكثر ، وقد أعلنت أنها «تربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة» .

والآن . . ماذا نرى ؟ الصفحة أو الجزء من الصفحة الذى تقدمه الجريدة أسبوعياً – إن لم تعدُ عليه حادثة أو أية مادة تؤخر نشره – يبدو هذا الذى تقدمه الجريدة هزيلاً لا غناء فيه . وبعض الجرائد لا تقدم شيئاً .

حتى الصحافة الأدبية والثقافية ، الجاد منها واحدة شهرية ، لم تجرؤ إحداها أن تظهر أسبوعية تؤدى للحركة الأدبية حقها أو تبعثها من مرقدها . كان عندنا فيما مضى مجلات أسبوعية يصدرها أفراد . والآن تصدر الحكومة وبعض المؤسسات مجلات ليس فيها أسبوعية واحدة ، وهى تتعثر فى طريقها وتعانى من النظر الشذر من قبل الرؤساء الكبار الذين يتغيرون ويتبدلون ، ويتوقع أن تبدر من أحدهم بادرة تطيح بالجمل وما حمل . . !

والمجلات الثقافية التى تصدر لا تعنى كثيراً باختيار المادة الأدبية التى تبنى المواطن الصالح وتتعهد النشء بما يتأتى منه النماء المنشود . وبعض هذه المجلات يدعى أنه ثقافى ، ويعوزه الدليل على هذه الدعوى . .

إن الحركة الأدبية لن تكون «حركة» حقيقية إلا بتنشيط الصحافة لها . سواء فى ذلك المجلات الأدبية ، أو المجلات العامة أو السياسية ، والصحف اليومية ، ويجب أن تخصص هذه للمواد الأدبية صفحات جادة .

إن صحافتنا الآن تنظر إلى الأدب نظرات شذراء ، لا تهتم -إن اهتمت- إلا بما يثير وما يتلاءم هو والمناسبات ، وكثيراً ما يكون هذا المتلائم تافهاً ينقصه الصدق الذى لا يكون العمل الفنى حياً إلا به .

هاك مثلاً لعدم اهتمام صحافتنا بالحياة الأدبية :

لاحظنا عندما ينعقد مؤتمر الأدباء العرب بالقاهرة لا تكتب عنه الصحف شيئاً يذكر . . خبر صغير فى مكان بارز وغالباً ما يكون هذا الخبر لأن وزيراً افتتح المؤتمر . . ولا شىء غير ذلك على حين كنا نرى الصحف فى البلاد العربية الأخرى التى ينعقد فيها المؤتمر نفسه كبغداد مثلاً تهتم اهتماماً كبيراً بالمؤتمر وما يجرى فيه من مناقشات وبمن يحضره من الأدباء العرب ، وتكتب نبذا عنهم ، وتأخذ أحاديث منهم . وتنشر كل ذلك فى صفحاتها البارزة . . . إلخ

والغريب أن بعض جرائدنا ومجلاتنا يتولى أمرها أدباء معروفون

بنشاطهم الأدبى المرموق ، ومع ذلك لا يهتمون بالأدب فى مجالاتهم الصحفية . . !

وأعتقد أن شيئاً من ذلك الإهمال يرجع إلى الكسل الذى يميل إلى عدم بذل الجهد ، فالذين يعينون للإشراف أو لإدارة القسم الأدبى – إن كان له وجود – يؤثرون العافية على أن يتعبوا فى تصفح المواد واختيار الصالح للنشر ، دون اعتبار للخواطر ودون استجابة للملق من جانب أصحاب التفاهات . .

وقد تضن الصحافة على الأدباء الجديرين « بالدفع » فلا تدفع لهم لقاء إنتاجهم . . على حين تبذر وتسرف فى وجوه أخرى .

وثمة أمر للصحافة فيه بعض العذر ، وهو أن المؤسسات الصحفية أصبحت مملوءة بالمحررين الكتاب – ومنهم من لا يحسن الكتابة – الذين يشكلون « عمالة زائدة » فإن أرادت الجريدة أو المجلة أن تستكتب غيرهم كانت فى حرج مادى وأدبى .

ومهما كانت الأمور فإن على الصحافة أن تغير نظرتها إلى الأدب وتعمل على نشر الجيد منه ، وأن يتعب المشرفون أنفسهم فى اختيار المادة الصالحة . دون اعتبار للمجاملة والمنافع الشخصية وعدم التورط والاستجابة للملق والمداهنة ، فإن هذه الآفات هى المنتشرة الآن ، وهى التى تمنع الأدب أن ينفع المواطنين ، وتمنع المواطنين أن يعترفوا للأدب بأن له دوراً مهماً فى حياتهم .

دور الكتاب

لا جدال فى أن الكتاب أهم وسيلة لإيصال الأدب والثقافة إلى المواطن ، إنه هو الذى قيل عنه منذ القدم : خير صديق . وسيظل الكتاب خير صديق دائماً مهما تكن الوسائل الأخرى من صحافة وإذاعة وتليفزيون ، وهذه لن تستطيع أن تحقق للمواطن ثقافة حقيقية وحدها ، أى بدون الكتاب ؛ فما نقرؤه فى الصحافة يمر عابراً ، وما نراه ونسمعه من الإذاعة والتليفزيون يطير مع الهواء ، وإن فاتك شىء منه فلا تستطيع أن تسترجعه أو تتثبت منه ، وذلك على عكس الكتاب الذى يصاحبك دائما ويلبى رغبتك فى أى وقت ، وتستطيع أن تنظم كما تريد الوجبات الشهية التى تحصل عليها منه . وخير ما تفعله الصحافة والإذاعة والتليفزيون أن تكون فى خدمة الكتاب ، لا أن تحارب الكتاب وتشغل الناس عنه . وذلك بالتعريف به ونقده والتشويق إليه ، ومن أمثلة ذلك البرنامج الذى يقدمه البرنامج العام للإذاعة باسم «من مكتبة فلان» وبرنامج «قرأت لك» فى إذاعة صوت العرب .

ولكن يبقى بعد ذلك الكتاب نفسه كبضاعة تسوّق ويقبل عليها الراغبون فى الشراء ، ويشترونها بثمن معقول .

ليس فى الإمكان أن يمنع الناشرون فى القطاع الخاص من تقديم الكتب البراقة التى يعرفون بخبرتهم وألمعيتهم أنها تلاقى إقبالا من المشترين ، فهؤلاء ليسوا إلا تجاراً يبغون الربح الوافر ، ولا أمل فى محاولة ترشيدهم ولو بالإعانات . . ! أمل واحد بعيد التحقيق هو الذى يستطيع أن يلزمهم سواء السبيل ، وهو ارتقاء أذواق الجماهير القارئة ، الذى يجعلها تعرض عن بضاعتهم البراقة وتطلب البضاعة الجيدة . .

وأما دور النشر التى تشكل القطاع العام ، أى المؤسسات والهيئات التى تخضع للدولة فهى التى تستطيع أن نمسك بزمامها ونوجهها إلى الخير العام . فالمفروض أنها تنشر الكتاب الجيد الذى يعرض عنه القطاع الخاص لقلة أو عدم العائد منه ، وعليها كذلك أن تفكر تفكيراً جدياً فى أثمان الكتب وتخفيضها ، وعلى الدولة أن تعينها على ذلك .

ليس من المعقول –أى ليس من المستساغ عقلا– أن تكون هذه الأثمان المرتفعة هى أثمان الكتب كما نراها الآن : هاك مثلا : بعض كتب يحيى حقى مثل كتاب « فجر القصة المصرية » الذى نشرته وزارة الثقافة منذ سنين فى « المكتبة الثقافية » وكان ثمنه قرشين أو ثلاثة ، وكتاب « قنديل أم هاشم » الذى صدر فى سلسلة « اقرأ » عن دار المعارف وكان ثمنه خمسة قروش . يصدر الآن هذا وذاك ضمن الأعمال الكاملة ليحيى حقى عن الهيئة العامة للكتاب بأثمان غير معقولة ، أى ليست من المستساغ عقلا ، ولا هى مما يقع فى إمكان القارئ العادى !

قد يقال : إن اللحم كان يباع رخيصاً ، وهو الآن غال ، فتلك الكتب مثله لا ، لا ينبغى أن تكون الكتب كاللحم ، بل يجب أن تكون كالرغيف من حيث تستطيع يد المواطن العادى أن تتناولها !

والمتأمل فى مسألة الكتب المرتفعة الأثمان يرى الأمر على خلاف ما يقدر مقدر الثمن . . يرى أن قلة البيع منها وحشدها فى المخازن يؤديان إلى خسارة محققة ، فهى كالبضاعة الكاسدة من جهة ، ومن جهة أخرى تشغل أماكن يمكن الانتفاع بها فى وجوه أخرى ، ولسنا نهزل إذا قلنا : إنها من جهة ثالثة تكثر الفئران وتحوج إلى شراء مصايد لها . . ! وقد يحتاج الأمر إلى جبن رومى يجذب الفئران إلى المصايد ، والجبن الرومى مرتفع الثمن مثل الكتب ولكنه يخالفها فى أنه يباع وينفد فلا يحتاج إلى تخزين . . !

وحسناً يفعلون فى المعارض والموالد ؛ إذ يخفضون أثمان الكتب ، فيقبل الجمهور على شرائها ، فتحقق بعض الفائدة المرجوة للمواطنين وللهيئات الناشرة . وماذا لو دبر الأمر وبصفة دائمة فليس كل الناس من الراغبين فى الكتب يغشون المعارض والموالد ؟

دور المسرح

والمسرح عندنا أمره عجيب . . إن نظرت إلى كثرة المسارح فى العاصمة وإلى كفاية الممثلين والممثلات والمخرجين والمخرجات ، رأيت حركة ناشطة تتحرك فى رقعة واسعة بين القطاع العام والقطاع الخاص ، ورأيت جماهير غفيرة تهرع خاصة إلى مسارح القطاع الخاص ، وقلت : ما شاء الله : هذا ازدهار مسرحى لا شك فيه . .

وإن نظرت إلى ما يقدم على تلك المسارح من مسرحيات رأيتها هزيلة من الناحية الأدبية : محشوة بالسفاسف والتهريج وكل ما يُبْتَغى به جذب فارغى الرءوس ، ولم تر فيها أى شئ يُبْتَغى من نفع للمواطنين غير مجرد الضحك الذى هو كل المقصود . .

ومما يضاعف المهزلة أن ترى بعض الشبان من الممثلين الذى تعلموا فى الكليات الجامعية وتخرجوا فى معهد الفنون المسرحية فنالوا بذلك أكبر قسط من التعليم فى البلاد – تراهم يأتون حركات مزرية لإضحاك المتفرجين ، وهم بهذا لا يختلفون عمن كنا نراهم يصبغون وجوههم بالصبغ الأبيض (الجير) وغيره لكى يضحكوا الأطفال والنسوة فى الشوارع والحارات . . !

والمسرحيات التى يقدمونها ، بعضها مقتبس عن مسرحيات أجنبية ، وليس كل أجنبى صالحاً ، إلى جانب ما يحدث عادة من تشويه وإفراط فى المسخرة المحلية !

وبعضها مؤلف بطريقة يجب أن ينص فى قانون العقوبات على محاكمة مرتكبيها . . وهذا مثال مما يوجب ذلك :

نشرت «الأهرام» فى ١٩٧٧/٣/١١ – الخبر التالى :

«أمر محمد حمزة مدير نيابة الخليفة بحبس عادل أبو المعاطى (٢٠ سنة) الطالب بالسنة الثالثة بمدرسة الحلمية الثانوية للبنين . وذلك لقيامه بالاعتداء بالضرب على مدرس اللغة الفرنسية بالفصل انتقاماً منه لطرده زميله الطالب محمد زايد الذى كان (ينبح) كالكلب مقلداً الممثل يونس شلبى فى مسرحية (مدرسة المشاغبين) . واعترف الطالب المتهم بواقعة الاعتداء على المدرس ، فأمرت النيابة بحبسه والقبض على زميله الذى هرب بعد أن قفز من فوق سور المدرسة عندما شعر بحرج موقفه» .

ولا يخدعنك ما يرد فى تلك المسرحيات من عبارات أو مواقف عابرة ، تومئ إلى هدف ، فهى من قبيل ذر الرماد أمام العيون حتى لا ترى الحقيقة ، والحقيقة أنها حافلة بكل التفاهات ، وأن تلك الأشياء المقحمة لا تغنى شيئا .

ذلك على حين أننا نعلم ما يكون للمسرح من أثر بالغ فى بناء الإنسان . والمؤسف أن التأليف المسرحى أصبح عندنا – وهو الناحية

الأدبية التى يقوم عليها المسرح – هو الذى يرجع إليه ذلك الضعف البادى ؛ فالكل يجمع بحق على أن عدم وجود النص الأدبى الجيد هو الذى يكبل الحركة المسرحية ، وهو سبب « الأنيميا » الحادة التى يعانيها المسرح المصرى فى الوقت الحاضر.

ونتيجة لذلك فإن أحسن ما يقدم الآن على المسرح المصرى هو القليل المترجم الذى يقدم كما هو بدون تمصير ولا تشويه .

ولا أعتقد أننا عاجزون عن تأليف المسرحيات الجيدة المؤثرة فى تكوين المواطن كما يجب أن يكون التأثير ، فعندنا مؤلفون لهم ماض معروف فى إجادة التأليف . ولا أظن التربة التى أنبتتهم قد أجدبت ولم تعد صالحة لأن تنبت أمثالهم من جديد ؛ إنما المسألة أن الفرق المسرحية ذاتها تريد أن تهرج وتبهرج لجذب الجماهير إلى « الشباك » وليس « الشباك » بعزيز على تأليف جيد إن اقتنع بذلك مديرو هذه الفرق ، فنحن نرى الجمهور الجاد وإقباله على الأفلام الأجنبية الممتازة التى تعرض أحياناً فى دور العرض بالقاهرة ، ونلحظ كذلك إقبالا طيباً على مسرح القطاع العام عندما يقدم مسرحيات قيمة .

وقد أثير هذا الموضوع : إقبال الجمهور وعدم إقباله على الأعمال المسرحية النظيفة ، من نحو خمسين سنة ، فقال « فرح أنطون » فى مقال نشر بصحيفة « الوطن » فى ١٠/٣/١٩١٦ ، قال : يردّ على من زعموا أن الناس لا يقبلون إلا على المسرحيات التافهة :

« وقد يقولون إنهم مثلوا (الفودفيل) النظيف فى روايات (مباغتات الطلاق) و (الابن الطبيعى) فلم يقبل عليه الناس لأن الناس لا يقبلون إلا على الروايات التى تغالت فى ضروب المجون . والجواب أن هذا أقبح ذم يوجه إلى الجمهور المصرى . وهو ليس بصحيح ولا الجمهور يستحقه كما ظهر بالبرهان ؛ لأن كل الروايات التى مثلت وهى الأخيرة سقط إيرادها فى الليلة الثانية إلى ١٥ جنيها . ولو مثلت مرة ثالثة ما بلغ إيرادها نصف هذا المبلغ . وهذا يدل على أن الجمهور لا يحب المجون السخيف كما يقال » .

ليت شعرى هل جمهور ما قبل نصف قرن أرقى من جمهورنا الحاضر ؟

ويتابع « فرح أنطون » كلامه فيقول :

« ولنفرض جدلا أن الروايات المتطرفة فى المجون هى التى تصادف الإقبال فيربح الجوق منها ربحاً عظيماً – وهو عكس الواقع كما ظهر للآن – فهل هذا كاف لتمثيلها بقطع النظر عن الفن والأدب ورقى الأخلاق التى هى أغراض المسارح ؟ فالأفضل إذن أن تجعل المسارح قهوات تمثيلية تسق فيها النساء البيرة ويكون الربح أعظم بكثير . إن مجرد الربح وحده لا يكفى لتبرير الأعمال الشاذة فى وسط شرقى كوسطنا » .

وأقول بعد ذلك الزمن الطويل الذى يفترض أننا تطورنا خلاله وعرفنا قيمة الفن والأدب أكثر ، أقول : إذا كانت الفلوس هى الغاية

المقدمة على الأدب المسرحى البانى فلا كانت الفلوس . . . وفى هذه الحالة نقول لأهل المسرح : اذهبوا إلى شارع الهرم أو إلى الشيطان . . !

وثمة مسألة يجب أن تكون فى الحسبان ، وهى أنه ليس كل المقصود والمطلوب مسرحيات هادفة والسلام . . كلا لا نريد ذلك ، بل يجب أن يؤدى الهدف بطريقة مشوقة ، تتكامل فيها عناصر الفن من إمتاع وتشويق وموضوع يفيد من خلال البناء الفنى . وهذه مشكلة القطاع العام على ما أتصور ، وهى من قبيل ما يطلق عليه فى هذه الأيام « المعادلة الصعبة » .

قد يدخل فى مشكلة القطاع المسرحى العام عنصر شخصى فى اختيار المسرحيات ، وهو داء منتشر فى نواحى القطاعات العامة على وجه عام ، ويجب الالتفات إليه والقضاء عليه .

وقد عقد فى العام الماضى بالقاهرة مؤتمر للمسرح ثارت فيه زوابع لم تنته إلى شىء ذى بال ، وأعتقد أن فى الشقيقة سوريا اهتماماً مسرحياً جاداً ، وأنه يفوق أى اهتمام فى أى من البلاد العربية بترقية المسرح ، فالحالة فى مصر كما نرى ، ومعظم الشقيقات تحاكى مصر وتقبس منها ، ويدفعنا هذا وذاك إلى الدعوة أن يكون مؤتمر المسرح القادم بالاشتراك مع سوريا والاستفادة من تجاربها فى هذا المجال . وليس عيباً أن نشعر بالنقص ونعمل على استكماله ، وخاصة مع بلد شقيق ، ولكن العيب أن ندع هذا النقص بلا عمل على تمامه . والتاريخ يجدد نفسه ، فقد

جاءنا فن المسرح أول ما جاء من سوريا ، فى أوائل عهد النهضة الحديثة .

إن بحث قضية المسرح الأولى ، وهى النص الأدبى المفيد الممتع أمر مهم فى قضيتنا التى ترمى إلى بناء الإنسان وتكوين المواطن الصالح بالوسائل الأدبية المجسدة للعيوب ، والحارسة للقيم الصالحة ، والمقومة للسلوك العام .

وإنى أرى من أهم الأهداف التى يجب أن نرمى إليها ، نشر الأدب المسرحى فى بلادنا كلها ، بحيث يكون فى كل إقليم فرقة أو فرق مسرحية يلتف حولها الشعب ويقبل على مسرحياتها ، بل يجب أن تكون هذه الفرق فى كل مدرسة وفى كل معهد وفى كل مصنع وفى كل هيئة . وهذا واجب قومى على الجميع – حكومة وشعباً ومؤلفين وحرفيين فى الفن المسرحى – القيام به . واليقين الذى لا يقبل الشك أن هذه الفرق لو اهتمت بعروضها بحيث تختار أو تؤلف لها مسرحيات حية يرى فيها الجمهور نفسه وقضاياه ، فسيقبل عليها الشعب إقبالا هو خير للشعب نفسه من الاهتمام بالكرة والتعصب الذى يشبه الجنون لنواديها : أى أنه يرجى أن يمتص الإقبال على المسرح – إذا ترقى وانتشر – ولو بعض الانشغال العقيم بكرة القدم والتعصب لهذا ولذاك ، كما يتوقع أن يمتص ذلك جزءاً من الزحام فى القاهرة الذى يؤدى إلى أزمات مختلفة ويكاد يخنق الأنفاس .

وثمة عيب فينا يجب أن يُلتفت إليه ، لأنه يفسد هذه الأمور : ذلك أن يتصدى للعمل الفنى غير الرجل الفنى ومن لا يحسنه من الموظفين وغيرهم ، وخاصة فى الأقاليم . ويستعينون فى ذلك بقربهم أو قرابتهم من المسئولين الكبار الذين لا يرون فى الغالب إلا من « يهنكر » حولهم ، ولا تمتد أبصارهم إلى أهل الفن الحقيقيين ! وهؤلاء الوصوليون مفسدة للأدب والفن أى مفسدة . فيجب أن يعطى القوس باريها كما يقول مثلنا العربى ، وأن « يعطى العيش لخبازه » كما يقول مثلنا العامى .

دور الإذاعة والتليفزيون

الإذاعة أكثر الوسائل اتصالا بالجماهير ، فهى تزيد على الصحافة مخاطبتها للأمى الذى لا يقرأ ، والقارئ الذى يؤثر العافية والقروش على القراءة والشراء .. وترى الراديو على عربة بائع الترمس ومع الفلاح فى الحقل ، كما تراه فى كل مكان !

والإذاعة تزيد على التليفزيون سهولة منال لمن لا يقدر على اقتناء جهاز التليفزيون ، وسهولة نقل واصطحاب إلى أى مكان .

والحق أن الإذاعة الآن تعنى بالناحية الأدبية والثقافية أكثر من الصحافة ومن التليفزيون : ففيها لهذا الغرض برامج منوعة جادة ، يُبذل فيه جهد مشكور ، مثل «مكتبة فلان» و«قرأت لك» و«حياتنا الثقافية» و«لغتنا الجميلة» و«مع الأدباء الشبان» وفيها إلى جانب هذه البرامج التمثيليات ، وأحرى بهذه أن تكون أهم المواد الأدبية لجاذبيتها وتأثيرها فى أكبر عدد من المستمعين ، أحرى بها أن تؤدى غرض البناء ، بناء المواطن الصالح ، إلى جانب إمتاعه وتسليته ، ولكن الواقع أن معظم التمثيليات الإذاعية لا تؤدى هذا الغرض ؛ فالحلقات المسلسلة أكثرها «بوليسى» يصطنع فيه التشويق والحبكة ، وفى النهاية «يفضى» كما

« تفضى » بالونة الأطفال المنفوخة . . وهى بعيدة عن حياة الناس ، لا يرون فيها قضاياهم وهمومهم ، فأكثرها يدور على التهريب والمهربين والجواسيس ، مما لا يمس المعاناة ويدخل فى المعايشة اليومية للجماهير . ونسمع فى حلقات الجواسيس كلمات وطنية مرتفعة الصوت مما لا يتفق مع همس الفن واستطاعته بث الغرض دون افتعال . وبعض هذه التمثيليات يشتمل على مثل ما سماه فرح أنطون « المجون السخيف » :

قرأنا فى أحاديث صحفية اعتراف المسئولين فى الإذاعة وفى التليفزيون بذلك النقص ، أى بتفاهة التمثيليات وهبوطها عن المستوى اللائق ، وكان مما قالوه أنهم لا يجدون نصوصاً جيدة ، وأنهم يدعون كبار الأدباء إلى المشاركة فى الإنتاج لها . ولكن هل « الدعوة العامة » تجدى ؟ وهل معاملة الإذاعة والتليفزيون للكتاب والمؤلفين تغرى ؟ أضرب مثلا : إنتاج الكتّاب يؤخذ ويعرض ويباع للإذاعات العربية بالأثمان المرتفعة ، ولا يعطى المؤلف إلا المبلغ القليل الذى يأخذه أولا وينتهى الأمر . . والذى تشاركه فيه الضرائب ، وما أدراك ما الضرائب : سواء فى ذلك الإذاعة والتليفزيون ، وكان كلا منهما لم يسمع كلام أنور السادات الذى قرر به حق المؤلف فى كل مرة يذاع فيها إنتاجه أو يعرض أو يباع . إن ما يقوله رئيس الجمهورية يجب أن ينفذ فى الحال ، تصدر به القرارات فوراً ، وتتخذ الإجراءات كافة للعمل به دون أى توقف .

قف عند « شباك الصرف » وانظر مؤلفا وراقصته ، انظر كم يأخذ المؤلف ، وكم تأخذ الراقصة ؟ فسترى العجب !

أما الناحية الأدبية فى التليفزيون فهى لا ترقى إلى مستوى مثلها فى الإذاعة ؛ إنها تقوم أساساً على العرض المسلى المؤلم معاً . . المسلى لعامة المشاهدين ، المؤلم لذوى الاختصاص . . البرامج الثقافية تشرف عليها وتديرها مذيعات نشأن فى الحلبة بعيداً عن الإبانة وفهم الموضوعات التى خصصت لها البرامج . و« الضيوف » يجب أن يكونوا من مؤلفى المسرحيات والأفلام ، حتى تعرض فى خلال الكلام مشاهد مما ألفوا . والكلام أكثره للمذيعة التى تدس أنفها فيما تعرف وما لا تعرف .

و « الضيف » أحياناً لا يفضل المذيعة فى الجهل بالموضوع ، ولعلها تختاره هكذا لتستطيع أن تسكته وقت اللزوم وتتكلم هى ! . وقد تسأل المذيعة الضيف عما قاله أويقوله فعلا بدون سؤال .. ظل محمد عبد الوهاب – فى التليفون – ينصح المطربة الناشئة ويوجهها إلى ما يجب أن تفعله لكى يستقيم لها أمر الغناء ، فإذا المذيعة تقول له وهى تحادثه بالتليفون : « تنصحها بإيه يا دكتور ! » فقال عبد الوهاب بصوته المسموع من التليفون : « ما أنا بقول أهو .. ! » .

والأخطاء اللغوية المتفشية على ألسنة مذيعات التليفزيون خاصة وبعض مذيعات الإذاعة أمرها مشهور يشتكى منه الجميع . ومما يذكر بهذه المناسبة أن كلية الإعلام التى تمد الإذاعة والتليفزيون والصحافة

بخريجيها وخريجاتها لا تشتمل مواد الدراسة بها على اللغة العربية وقواعدها ، مع أهميتها لهم ولهن فى المجال العملى .

وقد قرأت أخيراً خبراً يقول : إن وزير الثقافة والإعلام عبد المنعم الصاوى قرر تدريب مذيعات التليفزيون لغوياً ، وأوجب عليهن الحضور بمعهد التليفزيون لدراسة اللغة العربية . وهذا هو ما ينتظر من وزير أديب مثل الأستاذ عبد المنعم الصاوى .

إن اللغة العربية هى أداة التعبير فى أدبنا ، وعلى كل من يتصدى للكتابة بها أن يجيدها ، وعلى كل من يزاول عملا ينطق بها فيه أن يجيد هذا النطق . ومما يدعو إلى الأسف أن تدريس اللغة العربية فى المدارس لا يهتم الآن بالمطالعة الشفوية أمام مدرس كفء . يدربهم على النطق السليم ، وكذلك ألغى الامتحان الشفوى الذى كان يكفل ذلك ، وأصبحنا نرى كبار المسئولين الذى خرجوا نتيجة هذا التعليم لا يحسنون النطق العربى الفصيح ..

ونعود إلى النطق غير السليم على ألسنة مذيعات التليفزيون بصفة خاصة ، لنرى شيئاً مهماً ، هو من نوع نقص من يقدر على التمام .. وهو عيب فى النطق مرجعه أن المذيعة تقرأ ما كتب لها دون فهم ، ولو قرأته من قبل وتدبرته وعرفت معناه ما وقعت فى الخطأ والحرج . أضرب مثلا : مذيعة فى برنامج ثقافى قالت : إن الخصيب كان واليا على مصر من قبْل (بتسكين الباء) هارون الرشيد ، ثم أعقبت ذلك بما يدل ، بل

بما يصرح أنه كان فى عهد الرشيد ، مما يقطع بأن الخصيب كان والياً على مصر من قبل (بفتح الباء) الرشيد . كانت هذه المذيعة مثل قارئ القرآن الذى قرأ مخطئاً : فخر عليهم السقف من تحتهم ! فقال له أحد السامعين : ياهذا إذا لم تكن تحفظ فهندسْ .

وأما التمثيليات التى يقدمها التليفزيون ، وهى أهم مجال أدبى يمكن أن يؤثر فى تكوين المواطن المشاهد ، فإنها لا تختلف كثيرا وتمثيليات الإذاعة ، أكثرها مجون سخيف من نوع ما منعه عبد المنعم الصاوى على إثر توليه الوزارة . وإذا استثنينا بعض التمثيليات الصادقة فى تصوير معاناة الناس وقضاياهم مثل « القاهرة والناس » فى الماضى ، ومثل برنامج « القصة القصيرة » الذى يجرى عرضه الآن أسبوعيا ، إذا استثنينا ذلك فإننا لا نرى إلا المهازل السخيفة .

وأكثر التمثيليات التليفزيونية تدور حول أشياء بعيدة عن اهتمام الناس العاديين ، وتصور أجواء غير أجوائهم . نرى فيها الحبيبين فى «كازينوات» لا يعرفها الشعب ، أو فى « فيلات » و « صالونات » فاخرة .. « ديكورات إيه ! ومناظر إيه ! » والأبطال يركبون سيارات فارهة ، ولا نرى أحداً يعانى ركوب « الأتوبيس » أو يحاول عبثاً إيقاف « تاكسى » أو الوقوف فى « طوابير » المجمعات الاستهلاكية ، أو فلاحاً يلاقى ما يلاقى من عنت الجمعيات والوحدات الصحية فى قريته... وما إلى ذلك مما يعرفه الجميع ، ما عدا مؤلفى ومقدمى تلك التمثيليات الذين يستسهلون «الجاهز»

من أشياء أجنبية يمسخونها ، أو قوالب معروفة يحاكونها محاولين بهذا وذاك أن يحققوا تسلية للمشاهدين ، وهى تسلية فارغة رخيصة !

حتى التمثيليات التى تقدم باسم الدين وخاصة فى المواسم والمناسبات الدينية ، والدين منها برىء – فى الغالب نرى الممثلين والممثلات فى هذه التمثيليات ليسوا من المبرزين فى التمثيل ، وهم فى الواقع يمثلون بالشخصيات الإسلامية التى يتصدون لتمثيلها !

أذكر أنى قرأت للأستاذ أنيس منصور نقداً لتلك التمثيليات فى كلمة من الكلمات التى كان يكتبها فى « الأخبار » بعنوان « مواقف » فأعجبنى استنكاره وتساؤله عن « التشنجات » التى يصطنعها ممثلو وممثلات التمثيليات الدينية . . لماذا ؟ أوَلى يكون الإنسان مسلماً وسوياً إلا إذا تشنج ؟ وهذه التشنجات التى تنحصر فى الجانب الإسلامى ، على حين تقف أمامها الشخصيات المعادية عادية ، فتبدو الأولى مشوهة والأخرى سوية . . لماذا ؟

والمعروف المشاهد أن الإنسان المؤمن الواثق بأنه على حق يكون هادئاً مطمئناً بعقيدته وإيمانه ، على عكس المعادى له الذى يحاول أن يعوض نقصه بالصراخ والتشنج ، ولكن تمثيليات التليفزيون ، ومثلها تمثيليات الإذاعة التى تقدم باسم الدين – لا تسير على هذا النهج الطبيعى ، فتعكس الوضع وتفوت الغرض المنشود !

وبعض تلك التمثيليات – إن لم يكن معظمها – تشتمل على عيوب

تأليفية تنشأ من أن المؤلفين ليسوا متفقهين فى الدين ، فهم لا يعرفون أحكامه ولادقائقه ، والمخرجون كذلك يتابعونهم على غير علم بحقائق الدين وعلى جهل بالتاريخ الإسلامى .

عود على بدء

نعود إلى ما بدأنا به من ضرورة الأدب لبناء المواطن المرجو لخير هذا الوطن ، بشيء أو بمزيد من البيان والتفصيل .

تتردد الآن فى بلادنا دعوة إلى التوعية والتربية : توعية الجماهير بمسئولياتها للمجتمع ، وتربية الشباب والناشئين من حيث غرس الفضائل والقيم الصالحة وتنميتها فى نفوسهم وأعماقهم ، وتثار فى هذا الصدد قضايا مختلفة كثيرة ، استرعى انتباهى منها ما بحثته المجالس القومية المتخصصة فى اجتماع عقدته لهذا الغرض ، فقد نشر أنها «ناقشت قضية من أهم وأخطر القضايا التى تواجه حياتنا الاجتماعية والقومية ، وهى قضية الانتماء القومى ووسائل تنمية الشعور الوطنى بالانتماء والمسئولية فى مرحلة النمو السياسى والاجتماعى والانتقال الحضارى التى تمر بها البلاد ، وقد تركز البحث بصفة خاصة حول التيارات التى يتعرض لها المجتمع المصرى والتى تأتى فى صورة أفكار عقائدية من الشرق أو من الغرب ، كما تأتى فى صور مختلفة من الانحراف والتحلل والرفض واستخدام العنف فى هدم ما توارث عليه المجتمع من قيم ومبادئ وأخلاق ، وأوصى الاجتماع بضرورة العمل على مقاومة التسيب وردع الانحراف وعوامل الهدم فى

المجتمع ونشر الشعور بالعدل الاجتماعى بين جميع المواطنين ، والتمسك بسياسة الانفتاح والحرية والديمقراطية باعتبارهما من أهم الوسائل لكشف الانحراف » .

وتكتب وسائل الإعلام وتقول عن كثير من القضايا الشاغلة ، مثل تحديد النسل ، ومحو الأمية ، والتعليم الدينى بالمدارس ، والأغراض السياسية والاقتصادية التى أسفر عنها مؤتمر الملوك والرؤساء العرب والإفريقيين الذى انعقد فى القاهرة ، أضف إليها ما لابد منه من أغراض اجتماعية كتوثيق الروابط بين الجميع . .

يثار كل ذلك وغيره وخاصة فى الندوات والأحاديث التليفزيونية . ولا نرى أن إثارة هذه المسائل ومناقشتها بالكلام المجرد تكفى ، بل لا بد من بيان الوسائل التى تؤدى إلى الغابات . ولم يذكر الباحثون والمتحدثون والمتناقشون من تلك الوسائل غير شيء واحد ، هو القدوة الحسنة : قدوة الكبار للصغار وخاصة فى التربية الدينية ، بحيث يكون سلوك الكبار من آباء وأمهات فى البيوت ، ومعلمين ومعلمات فى المدارس ، نموذجاً يحتذى فى الفضائل والسلوك القويم

هذا صحيح : أى أن القدوة الصالحة من أهم وسائل التربية ، ولكن ألا ترى أن الكبار أنفسهم يحتاجون إلى معالجة لكى يكونوا قدوة صالحة ؟ من يضمن لنا أن الآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات يسلكون أمام أولادهم وتلاميذهم ما نريد منهم أن يسلكوا ، لكى يحتذوهم

ويسيروا على نهجهم ؟ لا أنكر أن هناك من هم على خلق قويم يؤهلهم لهذه القدوة ، ولكن كم عدد هؤلاء بين الملايين غير المؤهلين ؟

نعود هنا إلى ما ارتأيناه من أن الأدب بأنواعه وأجناسه المتعددة من شعر وقصة ومسرحية وتمثيلية وغيرها ، هو الوسيلة الناجعة فى تربية الجميع من كبار وصغار ، على أن يقدم لكل ما يناسب مستواه من التأليف الأدبى ، وينزل الأدب إلى المستويات المختلفة ، ويخرج الغامضون عن غموضهم ، وينزل المتعالون عن تعاليهم ، وبكلمة واحدة جامعة : يكون الأدب للجميع ، لا للتسلية فقط ، بل كذلك للتأديب والترشيد بلغة الفن التى تهمس ولا تجأر ، وتصور ولا تغط ، وترق ولا تجف ، وتوحى بالحل ولا تصرح به .

وبالنظر إلى الفرض الأخير أقول : إن الأدب إذا صرح بالحلول ورسم الخطط قضى على فنيته وأبطل مفعوله .. فإن وظيفة الفن الإصلاحية هى «الإيحاء» وإلا انقلب الأمر إلى وعظ مباشر يرفضه المتلقى ، لأنه — ولو مصمص شفتيه اتعاظاً — يؤثر فى أعماق نفسه أن يكون حراً فيما يراه من حلول ، ولا يُحبّ أن يفرض عليه شىء من خارج نفسه . وهذا من خصائص الأدب التى ينفرد بها عن مجرد الكلام .

وخاصية أخرى تذكر للتصوير الأدبى هى أنه وسيلة الاقتناع ، فإن ما يقال بقصد التوعية والتعليم والتوجيه يذهب غالباً فى الهواء ويسبح مع الهباء ، فإذا جسد فى تجربة أدبية مصورة شعر المتلقى أن التجربة تجربته

وأن عبرتها آتية من داخل نفسه ، لأنها مستمدة من حياة مثل حياته ، فأخذها أخذ المقتنع ، لأنها تسربت إلى وجدانه ومشاعره ، ولم يأخذها عن فكر مجرد لا ينفع وحده .

لحظت أن صديقى يسرف فى التدخين ، ويسعل سعالا يكاد يمزق قلبه ، فقلت له : ياأخى ، هلا رحمت نفسك وأقلعت أو أقللت من التدخين ! فقال لى : وفر على نفسك نصائحك ، فأنا أعلم أضرار التدخين وأعرف كل ما يقال ، ولكن كيف أتركه ؟ ثم سكت ، وسكت وأنا على يقين أنه لو صورت تجربة تدخين فى قالب فنى ورآها ولمس المأساة المصورة لتأثر بها أى تأثير !

وبعد ذلك كنا معا وشاهدنا على شاشة التليفزيون فيلماً تسجيليًّا تجرى حوادثه برسوم «كرتونية» تتضمن مناظر مفزعة منفرة لعملية التدخين ، وبطل الفيلم يرى المناظر ويحاول أن يقلع ، ويتردد بين أخيلة شتى ، وقال الفنى المعلق على الفيلم : إن الفكرة فيه ليست فى أنه يعرض مضار التدخين ، ولكنه يصور المدخن ومشاعره أمام هذه المضار ، وهل يقلع أولا ؟

ثم رأيت يد صاحبى التى تمتد بين لحظة وأخرى إلى علبة السجائر وتنفض منها واحدة سرعان ما تكون بين شفتيه مولعة ينبعث منها الدخان ..رأيت تلك اليد تخرج بيضاء من غير سيجارة ...

وأذكر بهذه المناسبة أن الأفلام السينمائية –تسجيلية أو روائية –

لو أحسن استخدامها تكون ذات شأن كبير فى السلوك الحميد ، ولكن الواقع المؤسف أنه لا يحسن استخدامها فى أغراض البناء والتنمية البشرية .

وبعد فإنى أقرأ وأسمع ما يكتب ويقال فى وسائل الإعلام المختلفة من نوعيات وتوجيهات كثيرة فى موضوعات حيوية كثيرة ، وأتخيل كل ذلك مثل ما قلته ناصحاً لصديق لا يحدث التأثير المطلوب ، وكثير من الناس يعلمون ما يكتب ومايقال ، ولكن الاقتناع شيء آخر لا يتحقق من مجرد الكلام ، هذا الاقتناع ليس له إلا الأدب والفن .

وأود أن أؤكد وأكرر ما قلته ، من أننا لا نريد الصوت العالى المباشر ، إنما نريد الصوت الهامس الموحى بما يراد من خلال التصوير والتجسيد ، بل من خلال الامتاع والتسلية .

ولا نقسر أديبا على أن يخالف طبيعته ، بل نحب منه أن تكون طبيعته اجتماعية إنسانية يصدر عنها فيما ينتج ، التزاماً لا إلزاماً ، واستجابة لا إيجاباً .

ولا نقصر الأمر على الأمور الجارية فى الحياة اليومية والأغراض القريبة ، فلكل أديب لونه وانبعاثه ، وقد يطيب لواحد مالا يطيب لآخر ، ولا بأس بذلك ما دام هدف الجميع هو الخير العام . فإن امتد التطلع إلى الإنسانية الشاملة ، وساعدت على هذا الموهبة والقدرة التعبيرية كان ذلك هو الخير العام الذى يعلى قدر صاحبه وينفع الناس جميعاً .

والأدب الحى الصادق ، على وجه عام – وإن لم يرم إلى هدف قريب – يسمو بنفس الإنسان ، ويرقق طبعه ، ويبث فيه حب الجمال ، والخير جميل ، والخلق الحسن جميل ، والسلوك القويم جميل ، والفضيلة جميلة .

فإن استطاعت الكلمة الأدبية أن تخلق الميل إلى الجمال ، أو تغذيه وتنميه ، فلقد فعلت كل شيء .

أدب الوطنية

نال هذا الغرض – الوطنية – من حياتنا الأدبية الحديثة على المستوى العربى العام ، جانباً كبيراً لم ينله غرض آخر من أغراض الأدب بصفة جدية وبصدق فى معظم ما قيل وما كتب ، فمنذ مطلع النهضة الحديثة يناضل أدباؤنا – شعراء وكتاباً – بأشعارهم وكتاباتهم ضد الاستبداد والاستعمار والصهيونية . وأثر هذا الأدب فى المواطنين العرب وأذكى أدوار الحماسة فيهم ، ونشبت ثورات سياسية واجتماعية ونشأت حركات مقاومة ، كثمرة لذلك الغرس ، واستمر الأدب العربى الحديث يناضل حتى الآن . وانصب كثير منه على المأساة الفلسطينية ، واستمر يغذى المقاومة من أجلها ، حتى صارت قضية تشغل العالم .

كان ذلك ولا يزال من الأدباء العرب فى كل مكان ، لا فى البلاد العربية فقط ، بل كذلك فى المهاجر ، ثم كان بصفة خاصة من الأدباء الفلسطينيين أنفسهم خارج الأرض المحتلة ، ثم كان داخل الأرض المحتلة نفسها ، حيث نشأت طائفة عارمة من الأدباء شعراء وقصاصين ، قاتلوا بالكلمة كما قاتلوا بالقنبلة ، وفجروا المشاعر كما فجروا القنابل ، وانتشر أدبهم فى سائر البلاد العربية يحمل دماً جديداً وروحاً جديدة متأججة .

واحتفى به النقاد والدارسون ، وتلقاه المتلقون بالأحضان ..

على أن كثيراً من الأدب الوطنى مفتعل تحس بافتعاله فتمجه ، لا يدخل إلى قلبك لأنه ليس خارجاً من القلب ، وقد أطلق على هذا النوع من الأدب «أدب المناسبات» والمناسبة الوطنية بذاتها موحية إن وَجدتْ موضعاً للإيحاء ، فإن قيل فيها بصدق جاء الأدب صادقاً يدخل إلى القلب دون استئذان .. أما الافتعال فيأتى ممن لا يشعر فى أعماقه بصدق ما يقول ، إنما يقوله نفاقاً ورياء ؛ لكى يكسب منفعة أو يتقرب إلى صاحب نفوذ .

ثم كانت حرب أكتوبر العظيمة ، فكان للنصر والعبور فيها أعظم الأثر فى الأدب العربى المتجدد : الشعر والرواية والقصة القصيرة . أما المسرحية فقد عرض منها مسرحيات حماسية لا بأس بها على وجه عام وإن لم تكن فى المستوى الذى بلغته الأجناس الأدبية الأخرى ، وخاصة الأغنية التى انبعثت قوية تسندها الألحان القوية تطرب وتلهب . ذلك لأن الشعور بالنصر كان قوياً وعميقاً ودافقاً يخرج من القلوب إلى القلوب .

ولم ينشر كل ما كتب فى حرب أكتوبر ، فقد قرأت كثيراً منه قدم فى مسابقات ، ونال بعضه الجوائز ، ثم طوى .. لا أدرى لماذا وإن كنت دارياً بأنه يستحق النشر ، بل هو أجدر بالنشر من كثير ينشر ..؟

وبهذه المناسبة أقترح على الهيئات التى تجرى المسابقات وعلى رأسها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أن تلتزم بنشر كل ما يفوز بالجوائز في مسابقاتها ، على أن يكون النشر بمعنى النشر ، لا مجرد الطبع وإهداء بعض النسخ وتخزين الباقي .. بل يجب أن ينزل هذا الإنتاج وكل ما يطبع من كتب إلى السوق حيث يعرض على الناس ويباع ما يباع منه ولو بثمن رمزي تحقيقاً للغرض المقصود .

وأذكر مثالا مما يجب أن ينشر ، أذكره لقرب عهده ، وهو المواد الأدبية الفائزة في المسابقة الأخيرة التي أجراها المجلس الأعلى للفنون والآداب في « يوم الأرض » ذكرى الكفاح الفلسطيني في الأرض المحتلة (٣٠ من مارس) . فاز في هذه المسابقة ثلاث قصص قصيرة ، وثلاث مسرحيات قصيرة ، وثلاثة أبحاث موجزة ، وتتضمن هذه الأبحاث تعريفاً ودراسات للأدب المناضل في فلسطين مع قبسات منه ، وهذه المواد مجتمعة تكوّن كتاباً قيماً ، أعتقد أن كثيراً من الناس يقبلون عليه ويستفيدون منه .

وكذلك المجلس الأعلى للشباب يجرى مسابقات أدبية بين الشباب في مناسبات اجتماعية ووطنية ، كان آخرها في « عيد الأم » الماضي . يجب على المجلس أن يلتزم هو أيضاً بنشر المواد الفائزة ، ولا يقصر الأمر على مجرد منح الجوائز .

النشر . النشر . أيها السادة . حياتنا الأدبية الكامنة ثمارها . . إنما ينضجها ويبعث مواتها النشر . فالأديب لا يكتب لنفسه ، ولا ليحصل

على جائزة وحسب ، بل ليصل ما ينتجه إلى الناس ، وأجهزة التوصيل هى التى تحييه وتشجع العاملين فى حقله – من شباب وكهول – على دوام الإثمار .

ويسلمنا هذا الكلام إلى بوادر وبشائر ، لمحناها فى مؤتمر الثقافة والإعلام الذى عقد عند الانتهاء من كتابة ما تقدم ، فى القاهرة فى أواخر شهر مارس سنة ١٩٧٧ .

الكتاب القادم

آفاق جديدة فى التعليم

د . طلعت حسن

رقم الإيداع	١٩٧٧/٥٢٠٤
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ١١٣ – ٢

١٥٣/٧٧/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هـذا الكتاب

الأدب عنصر من عناصر تكوين شخصية المواطن . . وتنمية البشرية هى الأساس السليم للتنمية الاقتصادية والتقدم بصفة عامة . .

وهذا بحث يلقى الضوء على الأدب والمواطن وأهمية الأدب فى علاج الأمية الثقافية ، كما يتناول تحديد المسئولية عن أزمة القراءة . . ويناقش دور كل من الصحافة والإذاعة والمسرح والكتاب . . باعتبارها مصادر الثقافة العامة . . ويطالب أخيراً بإزالة العقبات التى تحولت دون وصول الأدب إلى المواطن .

٤٥٠٥١٦ / ١

١٠ ج